

الفصل الثالث

الأفكار والمفاهيم

كما يتميز المجتمع المسلم بعقائده وشعائره ، يتميز كذلك بأفكاره ومفاهيمه وتصوراته .

فالمجتمع المسلم تسوده أفكار ومفاهيم تحدد وجهة نظره إلى الأشياء والأحداث والأشخاص والمواقف ، والقيم والعلاقات . فهو يحكم على هذه الأمور كلها من زاوية الإسلام ، وهو لا يستمد حكمه ، ويستقي وجهة نظره إلا من مصادر الإسلام النقية ، المصفاة من الشوائب والزوائد ، التي تمثل رواسب العصور ، وتؤكد التحرر من غلو الغالين ، وتقصر المقصرين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

لقد حرص الإسلام منذ طلوع فجره على أن يصحح مفاهيم أبنائه ، حتى تستقيم نظرتهم إلى الأمور والمواقف ، ويتحد تصورهم العام للأشياء والقيم . فلم يدعمهم لسطحات الفكر ، ولا انحرافات الهوى ، فيزيغوا عن القصد ، ويضلوا عن سواء الصراط ، وتفرق بهم سبل الباطل عن سبيل الحق .

ولهذا دأب القرآن ، كما دأبت السنة ، على تصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة ، والتصورات المنحرفة ، التي تشيع في أذهان الناس .

فهم بعض الأعراب أن الإيمان مجرد إعلان وتظاهر ، فنزل القرآن يصحح هذا المفهوم ويقول : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٤-١٥) .

وأشاع بعض أهل الكتاب من اليهود : أن البر أو التقوى هو الاهتمام برسوم معينة ، وشكليات خاصة ، ولهذا أقاموا الدنيا وأفعدوها حين تحول الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة ، وجعلها الله له قبلة ، فنزل القرآن يبين حقيقة البر والتقوى والدين الحق فقال : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وحسب بعض الناس أن طريق الإيمان إلى الجنة مفروش بالأزهار والرياحين ، لا فتنة فيه ولا اضطهاد ولا عذاب ، فنزل القرآن يدرأ هذا الوهم ، ويخطئ هذا الفهم إذ يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا إِنَّا بِهِمْ أَسِيبٌ أَيُنَاقِلُهُمْ إِلَيْنَا وَهُمْ لَكَاظِمُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ١-٣) .

ويقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢) ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤) .

وتصور بعض الناس أن مَنْ قُتِلَ في سبيل الله قد مات ، كما يموت الآخرون من البشر فينفي القرآن هذا الحسبان ، ويضع مفهوماً جديداً إذ يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٤) ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

ويصحح القرآن فكرة الناس عن الفوز والفلاح والخسران ، فينقلها من دائرتها الضيقة في عقول جماهير الناس : الدائرة المادية الدنيوية العاجلة إلى دائرة أرحب وأخلد وأبقى ، فيقول : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١-٢) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿٦﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ (الأعلى: ١٤-١٥) ، ويقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخُسْرَانَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الزمر: ١٥) .

ويعتقد فئة من الناس أن الظلمة والنور أثران لإلهين مختلفين يصطرعان حتى تكون الغلبة في النهاية لأحدهما ، فبيّن القرآن أنهما أثران لخالق واحد وإله واحد ، ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام: ١) ، ﴿ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبا: ١٠-١١) ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ ۖ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٧١-٧٢)

62

وجاءت السُّنة النبوية فكانت البيان والتفسير ، النظري والعملي للقرآن ، وظلّ الرسول الكريم ﷺ يصحح ويوضح ، ويبني ويهدم ، حتى استقام للمجتمع المسلم تصوره ، واتضحت مفاهيمه ، وأصبح على بيّنة من ربه ، وبصيرة من أمره ، كما خاطب الله تعالى رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨) ، ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١) .

وصحح النبي ﷺ مفاهيم كثيرة جداً لعل أهمها مفهوم الإيمان ، فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(١) ، « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » ^(٢) ، « ليس بمؤمن مَنْ بات شبعان وجاره جائع » ^(٣) ، « الإيمان بضع وسبعون شُعبة ، والحياء شُعبة من الإيمان » ^(٤) .

إلى أحاديث كثيرة جمعها أحد الأئمة (البيهقي) في مؤلف ضخم باسم (شُعَب الإيمان) .

ويضع الإسلام مفهوماً جديداً في قبول الأعمال ، فيربطها بمقاصدها ونياتها الباعثة عليها ، ويجعل موضع نظره هو القلب لا الجوارح : « إنما الأعمال بالنيات ،

-
- (١) متفق عليه : رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) ، كلاهما في الإيمان ، عن أنس .
- (٢) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٢٠٩) ، والبغوي في شرح السنة (٢١٣/١) ، عن عبد الله بن عمرو . قال النووي في الأربعين النووية (٤١) : حديث حسن صحيح . وقال ابن حجر في الفتح (٢٨٩/١٣) : رجاله ثقات .
- (٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢) ، والطبراني في الكبير (١٢٧٤١) ، وأبو يعلى (٢٦٩٩) ، عن ابن عباس . وصححه الضياء في المختارة (١٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (١٣٥٥٥) ، والمنذري في الترغيب (٣٨٧٥) : رجاله ثقات .
- (٤) متفق عليه : رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) واللفظ له ، كلاهما في الإيمان ، عن أبي هريرة .

وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) ، «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢) ، «ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»^(٣) .

ويبين حقيقة الغنى فيقول : «ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس»^(٤) .

وحقيقة القوة ، فيردها إلى قوة النفس ، لا إلى قوة الجسم : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٥) .

وحقيقة المسكنة والمسكين ، وينفي الصورة الفاشية عند جمهور الناس عن المسكين فيقول : «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة ولا اللقمتان ، إنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس»^(٦) .

وفي رواية : «إنما المسكين المتعفف . واقرأوا إن شئتم : ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة: ٢٧٣)»^(٧) .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) ، عن عمر بن الخطاب .

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٦٤) ، عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) ، عن النعمان بن بشير .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦) ، ومسلم في الزكاة (١٠٥١) ، عن أبي هريرة .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦١١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) ، عن أبي هريرة .

(٦) متفق عليه : رواه البخاري (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠٣٩) ، كلاهما في الزكاة ، عن أبي هريرة .

(٧) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٥٣٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠٣٩) ، عن أبي هريرة .

ويبين الرسول ﷺ مقياس التفاضل بين الناس أفراداً وجماعات ، حصره في الإيمان والتقوى والعمل الصالح .

ورد المفاهيم الشائعة ، من اعتبار الزينة ، والجاه أو المال والغنى ، أو الجنس والنسب ، أو الضخامة والفخامة ، أو ما شابه ذلك من مقاييس مادية دنيوية ، « فرباً أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره »^(١) ، ورب فقير خير من ملء الأرض من غني مشهور^(٢) ، « ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »^(٣) ، « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »^(٤) ، « يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة »^(٥) .

ويبين الرسول ﷺ اختلال المقاييس في آخر الزمان فيقول : « يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه : ما أظرفه ، وما أعقله ، وما أجمله ، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان »^(٦) .

أفكار الإسلام ومفاهيمه وتصوراته هي التي تعمل وحدها في المجتمع المسلم ، وتسيطر على عقول بنيه ، وتوجه أدبه وفنه ، وثقافته وإعلامه ، وتربيته وتعليمه .

فكرة الإسلام عن الإنسان ، وعن الحياة والدنيا ، وعن المال والغنى والفقر ، وعن التدين والبر والتقوى ، وعن العدل والإحسان ، وعن التقدم والتأخر ، وعن التحضر والتخلف ، وعن الزهد والقناعة ، وعن الصبر والرضا .

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٦٢) ، عن أبي هريرة .

(٢) معناه عند البخاري ، في النكاح (٥٠٩١) ، عن سهل بن سعد .

(٣) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح . والطبراني في الأوسط (٤٧٤٩) ، عن أبي نضلة : وقال الهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه مسلم في العلم (٢٦٩٩) ، عن أبي هريرة .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٥) ، عن أبي هريرة .

(٦) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) ، عن حذيفة ابن اليمان .

فكرة الإسلام عن الرجل والمرأة والعلاقة بينهما . . فكرة الإسلام عن الغني والفقير والعلاقة بينهما . . فكرة الإسلام عن الحاكم والمحكوم والعلاقة بينهما . . فكرة الإسلام عن الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما .

هذه الأفكار وما شابهها يجب أن تكون هي الموجهة للمجتمع المسلم ،
المهيمنة عليه ، دون غيرها من الأفكار والتصورات .

وذلك لأن أفكار الإسلام ومفاهيمه ، هي وحدها المستقاة من المصدر الإلهي المعصوم ، فمصدرها : ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾
(هود: ١) .

وسنة رسول لا ينطق عن الهوى ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدِيُّ يُوْحَى ﴾ (النجم: ٤) .
ونتيجة لذلك كانت هذه الأفكار وحدها هي التي تتسم بالشمول والعمق والتوازن في تقويمها للأمر ، ونظرتها إلى جميع العلاقات .

ففكرة الإسلام عن الحياة هي الفكرة المتوازنة المعتدلة ، التي تجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وطريقاً إلى دار الخلود ، والطريق يجب ألا يشغل عن الغاية التي إليها تُشدُّ الرحال ، ولكنه يجب أن يكون مريحاً مزداناً بالأشجار والظلال ، حتى يهون اجتيازه بمراحله على المسافرين .

فليست هي الفكرة المتشائمة القائلة : إن الحياة لعنة ، وإن العالم شر ، وينبغي التعجيل بفناؤه بالتبتل والرهبانية ، والانقطاع عن الزواج وعن الطيبات ، كما يقول المذهب المانوي في فارس ، وكما مارس ذلك رجال الرهبانية في النصرانية ، والفقراء في الهندوسية .

وليست هي الفكرة الدهرية الملحدة ، التي مضمونها : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجن: ٢٤) أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وليس وراء ذلك بعث ولا حساب ولا جزاء .

وفكرة الإسلام عن الإنسان هي الفكرة المتوازنة المعتدلة ، التي تنظر إليه على أنه مخلوق مكرم ذو طبيعة مزدوجة ، فهو جسم وروح ، أو هو روح يسكن في غلاف من الجسم ، كما قال تعالى في خلق الإنسان الأول : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١-٧٢) .

ويجب أن يُعطي الجسم حقه ، والروح حقه في شريعة الإسلام .

فليست هي الفكرة المادية القائلة : إن الإنسان ليس إلا هذا الجسم بأجهزته وأعضائه ، بلحمه ودمه وأعصابه وغرائزه ودوافعه ، وليس وراء الجسم شيء آخر ، فهي تنظر إلى الإنسان كما تنظر إلى العالم ، فالعالم عندهم مادي ولا إله له ، والإنسان مادي ولا روح فيه .

وليست هي الفكرة الروحية المسرفة التي تقول : إن الجسم شر ورجس ، وإن الروح وحدها هي محل الطهر والسمو ، فلا نجاة للإنسان ولا خلاص ، إلا بتعذيب الجسم وحرمانه ، ليتسنى للروح أن تصفو وترقى وتزكى .

فليس بمجتمع مسلم صحيح الإسلام إذن : ذلك المجتمع الذي يشيع فيه مفهوم الحياة ، كما هو عند الغربيين ، ولا كما هو عند البوذيين .

وليس هو الذي يتصور الإنسان تصور الروحيين المتشائمين ، ولا تصور الماديين المسرفين .

وليس بمجتمع مسلم صحيح ذلك الذي يفهم التقوى على أنها ثياب ترقع ، ولحية تعفى ، ومسبحة تدار في اليد . . وإن لم يكن وراءها علم نافع ، ولا قلب خاشع ، ولا عمل صالح .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يفهم التدين على أنه مجرد أداء الشعائر من صلاة وصيام وحج وعمرة . . وإن كان يتعامل بالربا في تجارته ، أو يدع المرء فيه زوجته مكشوفة الذراعين والساقين ، أو يدع أولاده في مدارس التبشير والتنصير ، أو يتركهم فريسة للمريبات الكافرات أو الفاسقات .

أو يرى المنكر ضارباً أظنابه في كل مكان ، والفساد ناشراً ظلامه على كل موضع . وهو يقول : نفسي نفسي ! مغفلاً فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد لمقاومة الباطل .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يشيع فيه مفهوم العدل الاجتماعي على أنه نهب القناطير المقنطرة ، ثم التصدق بدريهمات أو دوانق على بعض الفقراء والمحتاجين ، مما جعل بعضهم يفهم خطأ عدالة الإسلام فيطلق عليها اسم (اشتراكية الصدقات) !
وليس العدل أيضاً هو نهب الأموال المملوكة - ملكية مشروعة من أصحابها الأغنياء - بزعم إعطائها للفقراء ، وإن لم يصل إلى الفقراء منها نقير ولا قطمير ، فهذا المفهوم - كذلك - للعدل الاجتماعي مفهوم خاطئ دخيل على فكرة الإسلام .
وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي ينظر إلى الفقر والغنى نظر الصوفي القائل : إذا رأيتَ الفقر مقبلاً فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيتَ الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته !

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي ينظر إلى المرأة على أنها أحبولة الشيطان ، وأخت إبليس ، وأنها هي التي أخرجت آدم من الجنة - كما تزعم التوراة ، وكما يعتقد اليهود والنصارى - وكما يظن للأسف كثير من المسلمين بحكم الثقافة المسمومة التي تلقوها في المدارس أو من أجهزة الإعلام .

وليس هو أيضاً الذي يشيع فيه ذلك المفهوم الخاطئ عن مساواة الرجل بالمرأة مع أن فطرة الله خالفت بينهما ، وجعلت للرجل القوامة ، والمسئولية : ﴿ أَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (النساء: ٣٤) .

إن الأفكار والمفاهيم التي تشيع في المجتمعات المنتسبة إلى الإسلام اليوم ألوان وأنواع شتى :

(أ) بعضها من بقايا القيم والتعاليم الإسلامية الصحيحة ، التي لا يزال لها أثرها في كثير من الأنفس والعقول ، وخصوصاً بعد أن قام للإسلام دعاة واعون في بلاد

شَتَّى ، يشرحون رسالته شرحاً يرد إليها فطريتها وشمولها ، ويدراً الشبهات عنها .

(ب) وبعضها من رواسب العصور الأخيرة التي تخلف فيها الفكر الإسلامي في مختلف المجالات ، ففقد الأصالة والإبداع ، وأغلق باب الاجتهاد ، وأصيب المسلمون بسوء الفهم للإسلام ، كما ابتلوا بسوء التطبيق له كذلك .

(ج) وبعضها من الروافد الأجنبية التي زحفت على ديار الإسلام ، مع الاستعمار ، الذي كان أكبر همه أن يغير أفكار المسلمين وتصوراتهم وأذواقهم ، ليسهل عليه بعد ذلك ليّ زمامهم إلى الوجهة التي يريد .

وواجب المجتمع المسلم أن يطارد كل المفاهيم التي لا تستمد من الإسلام الصحيح ، سواء أكانت من رواسب التخلف والانحراف عن الإسلام ، أم من الأفكار الغازية الوافدة مع المستعمر الغربي .

فمن النوع الأول فكرة كثير من المسلمين ، في كثير من الأقطار عن المرأة وعلاقتها بالرجل ، ونظرتهم إليها باعتبارها مخلوقاً ناقصاً أو خطراً ، يجب أن تظل حبيسة البيت حتى يؤويها القبر ، لا ترى رجلاً ، ولا يراها رجل ، ولا تخرج لعبادة أو عمل صالح أو علم نافع .

ومن النوع الثاني فكرة كثير من المسلمين ، العصريين الذين تثقفوا بثقافة الغرب ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، فاعتبروا خروج المرأة على فطرتها ووظيفتها ، من الحقوق المشروعة ، ويعدون اختلاطها بالرجال الأجانب - بغير قيد ولا تحفظ - من الحرية المطلوبة . ويعتبرون القول بغير ذلك ضرباً من الرجعية في التفكير ، والتطرف في السلوك! والأفكار الأجنبية الدخيلة الآن هي التي تغلب وتسود لدى جمهور المتعلمين من خريجي الجامعات وغيرها .

ومن أخطر المفاهيم التي لقنها إياهم الغزو الثقافي هو : مفهوم (الدين) كما يتصوره الغربيون .

فمفهوم الإسلام عن (الدين) دائرته ومداه ، غير المفهوم السائد عند الغربيين حتى المتدينين منهم ، إنه عندهم مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربّه ، لا علاقة له بشؤون الدولة وأنظمة المجتمع ، ولهذا قامت الحياة الحديثة هناك على أساس الفصل بين الدولة والدين .

أما الإسلام فهو في نظر المسلمين منهج شامل ينظم شؤون الحياة كلها : من قضاء الحاجة إلى قيام الدولة ، ومن أدب الأكل والشرب إلى نظام الاقتصاد وسياسة الحكم ، ومن الصلاة والصيام إلى شؤون الحرب والسلم والعلاقات الدولية .

والشريعة الإسلامية هي الحاكمة على جميع أفعال المكلفين ، لا يخرج قول ولا عمل عن سلطانها ، وكل عمل صادر عن مكلف لا بد أن تعطيه الشريعة حكمه من الوجوب ، أو الاستحباب ، أو الحرمة ، أو الكراهة ، أو الإباحة . ومهمة الشريعة هي إخراج المكلف ، من اتباع داعية هواه إلى التقيد بأحكام الله .

ومصادر الشريعة فيها الوفاء كل الوفاء بتغطية جميع الوقائع والأحداث التي تمر بالبشر ، بحسب ما احتوت من أصول وقواعد ونصوص ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذُرًا لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) .

وقد كان الواقع التطبيقي للإسلام شاهداً على صحة هذه الفكرة ، فكان الرسول ﷺ هو المبلغ عن الله ، والقائم بأمر الدين ، وهو إمام المسلمين ورئيس دولتهم ، والقاضي في خصوماتهم ، ولم يكن معه ملك أو حاكم يقوم بأمور السياسة ، كما كان يحدث ذلك في بني إسرائيل الذين قالوا لنبيهم : ﴿ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾

(البقرة: ٢٤٦-٢٤٧).

وكان الخلفاء الراشدون بعد رسول الله ﷺ هم أئمة المسلمين في الصلاة ورؤساؤهم في الإدارة والسياسة ، وكذلك كان من بعدهم من خلفاء بني أمية والعباس .

ولهذا عرّف العلماء الخلافة بأنها : نيابة عامة عن رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

وهذا المفهوم الإسلامي الصحيح عن (الدين) يجب أن يسود ويشيع في المجتمع المسلم ، حتى يمكن بعدها محاكمة كل مسلم إلى دينه الذي التزمه وأمن به ورضيه الله له ، ورضيه لنفسه ، ويمكن بعدها قياس كل الاعتبارات والتصورات والأقوال والأعمال بمقياس الدين ، الذي لا يخطئ ولا يضل ولا ينسى .

● نوعان من المفاهيم هما خطر على المجتمع :

والمجتمع المسلم اليوم يجب أن يتحرر من نوعين من المفاهيم الدخيلة عليه ، سيطر كل نوع منهما على عدد من الناس : بعضها سيطر على العامة ، والآخر سيطر على الخاصة ، أو النخبة .

النوع الأول : المفاهيم التي دخلت على الإسلام وعلى مجتمعاته في عصور التخلف وسوء الفهم للإسلام .

مثل المفاهيم التي شاعت وسادت عن التوكل بأنه التواكل ، وعن الزهد بأنه ترك الحياة لغير المؤمنين ، وعن الإيمان بالقدر بأنه ضرب من الجبرية ، وعن الفقه بأنه نقل ما قاله الأقدمون ، وعن الاجتهاد بأنه باب قد أغلق ، وعن العقل بأنه نقيض النقل ، وعن المرأة بأنها أحبولة الشيطان ، وعن بركة القرآن أنها في تعليقه للحفظ من العين أو من الجان ، وعن بركة السنّة أنها في قراءة البخاري عند الأزمات ، وعن الأولياء والكرامات وما شاع حولها من اعتقادات وأفكار تنبأض سنن الله في الأنفس والآفاق .

إلى غير ذلك من المفاهيم التي سادت في زمن الركود العلمي ، والجمود الفكري ، والتقليد الفقهي ، والاجترار الكلامي ، والانحراف الصوفي ، والاستبداد السياسي ، والانتكاس الحضاري .

والنوع الثاني : المفاهيم التي زحفت على مجتمعاتنا ، مع زحف الاستعمار ، فدخلت من بابه ، وسارت في ركابه ، واحتمت بجناحه ، واتخذت الغرب لها قِبلة وإماماً ، ولم يكن لنا بها عهد ولا خطر لنا ببال .

إنها المفاهيم المتعلقة بالدين والدنيا ، والرجل والمرأة ، وبالفضيلة والرذيلة ، بالتححر والجمود ، وبالتقدم والرجعية ، وبالحلال والحرام .

المفاهيم المتعلقة بالحدود الفاصلة بين حرية الفكر وحرية الكفر ، بين حرية الحقوق وحرية الفسوق ، بين العلمية والعلمانية ، بين الدولة الدينية والدولة الإسلامية .

إنها مفاهيم الغزو الفكري ، التي تعتبر الإيمان بالغيب تخلفاً ، والتمسك بالسلوك الديني تزمناً ، والدعوة إلى تحكيم الشريعة تطرفاً ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخلاً في شؤون الآخرين ، واختلاط الرجل بالمرأة - بلا قيود - تحرراً ، وعودة المرأة المسلمة إلى الحجاب الشرعي رجعية ، والانتفاع بالتراث تعصباً ، واعتبار علماء الدين حُرَّاس الخلف ، ودعاة (التغريب) أعلام (التنوير) .

والواجب على الدعاة والعلماء والمفكرين الإسلاميين أن يقدموا الأفكار والمفاهيم الشرعية الإسلامية الصحيحة الأصيلة ؛ لتحل محل الأفكار والمفاهيم الغريبة الدخيلة ، سواء دخلت قديماً أم حديثاً . فكلتاها لا تمثل الإسلام الصحيح : الأفكار القديمة المتعفنة ، والأفكار المستوردة الغازية المدمرة ، أو بتعبير الأستاذ مالك بن نبي : الأفكار الميتة ، والأفكار المميّنة .

ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى القضية في ضوء الوسطية والتطرف ، فعلى أن نتبنى مفاهيم التيار الوسطي ، الذي تحدثنا عنه في كتب أخرى ، ونرفض التطرف ، سواء أكان إلى الغلو والإفراط ، الذي تمثله بعض الفصائل الإسلامية أم إلى التقصير والتفريط الذي تمثله الشرائع العلمانية والمتغربة في أوطاننا ، وهي متفاوتة في تأثيرها بالعلمانية والتغريب ، بعضها قريب جداً ، وبعضها بعيد جداً ، وبعضها بين .

لقد ذكرت ثمانية عشر مفهومًا أساسيًا عن الإسلام في كتابي (الإسلام والعلمانية) أردت بها تحديد ملامح الإسلام الذي ندعو إليه ، حتى لا يزعم زاعم أننا ندعو إلى إسلام غامض ، أو مجهول ، أو (هلامي) قابل لأن يفسره مَنْ شاء كما شاء !

وقدّمت مجموعة إسلامية مستنيرة رؤية إسلامية معتدلة صاغها الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، وأنا موافق عليها في جملتها ، وإن كنت قد أخالف في بعض التفاصيل .

وهذا الكتاب ذاته يقدم ملامح عن المجتمع المسلم الذي ننشده في ضوء مفاهيم المدرسة الوسطية التي تؤاخي بين العقل والنقل ، وتربط بين الدين والدنيا ، وتوفق بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر ، وتوازن بين الثوابت والمتغيرات ، وتجمع بين السُّلَفيّة والتجديد ، وتستلهم الحاضر ، وتستشرف المستقبل ، وتؤمن بالانفتاح في غير ذوبان ، والتسامح في غير تهاون .

* * *